

المبحث التاسع

سنة الله في الآجال وقدرته الله وثمار الإيمان بالقدر

أولاً: سنة الله في الآجال:

إن الله ﷻ قَدَّرَ آجالَ الخلائق، بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: 49].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: 145].

وعن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية، قال: فقال النبي ﷺ: «قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً قبل حله، ولن يؤخر شيئاً عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعينك من عذاب النار، وعذاب القبر: كان خيراً وأفضل»⁽¹⁾.

فالمقتول ميت بأجله، فعلم الله تعالى وقدر وقضى أن هذا

(1) المنحة الإلهية في تهذيب شرح الطحاوية، عبد الآخر حماد الغنيمي، ص: 320.

يموت بسبب المرض وهذا بسبب القتل، وهذا بسبب الهدم، وهذا بالحرق، وهذا بالغرق، إلى غير ذلك من الأسباب، والله خلق الموت والحياة، وخلق سبب الموت والحياة⁽¹⁾.

ولما قتل في غزوة أحد من المسلمين من قتل، وأخذ المنافقون من ذلك قضية يلونها بالسنتهم، ويلوون المسلمين على خروجهم لقتال المشركين وإن إخوانهم الذين قتلوا، لو كانوا عندهم، ولم يخرجوا للقتال، ما ماتوا وما قتلوا فرد عليهم القرآن أبلغ الرد، مندداً بهم وبموقفهم، فقال: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: 154].

وقال ﷺ: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: 11].

والمعمر: من يعيش عمراً طويلاً في العادة، ومن ينقص من عمره: من يعيش عمراً قصيراً، قدره بعضهم بما قبل الستين، والضمير في ﴿عُمُرِهِ﴾ عائد على الجنس لا على العين، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره.

وجاء عن ابن عباس في تفسير الآية: ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد

(1) المنحة الإلهية في تهذيب شرح الطحاوية، عبد الآخر حماد الغنيمي، ص: 320.

قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة، وبالغ العمر أي: الطويل، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنَ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: 11] يقول: كل ذلك في كتاب عنده.

وبعضهم فسر ﴿وَمَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ [فاطر: 11] بمعنى ذهب العمر قليلاً.

قليلاً: سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتابه⁽¹⁾.

ومنهم من فسر نقص العمر بقلّة البركة فيه، والزيادة في العمر بإلقاء البركة فيه⁽²⁾، فقد جاء في الحديث الشريف: «من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره⁽³⁾، فليصل رحمه»⁽⁴⁾.

فالآجال سواء كانت قصيرة أو طويلة مقدره من أسبابها، وليست منفصلة عنها، كما يتوهم عوام الناس، فمن قدر له طول الأجل، قدر له أنه سيتهيأ له من الأسباب، من توافر الغذاء الصحي، وطيب الهواء النقي، وممارسة العمل البدني أو الرياضي والابتعاد عما يضر بالبدن تناوله، من المسكرات أو المخدرات، أو الأشياء

(1) تفسير ابن كثير (2 / 550).

(2) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 60.

(3) أي في أجله.

(4) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان رقم 1657.

الضارة كالتدخين، أو طول السهر، أو ارتكاب المحرمات، فهو بهذه الأسباب يطول عمره، وهذه الأسباب مقدره كمسبباتها، ومن قدر له قصر العمر، قدر له أن يبتلي بسوء التغذية، أو سوء التهوية أو الإصابة بعدوى أو تناول ما يضره ويؤذيه، أو يصيبه حادث في طريق، بأن يموت في كارثة عامة كالزلازل، أو يقتله قاتل عمداً أو خطأ، فيموت وينتهي أجله بواحد من هذه الأسباب أو غيرها، ولكنه مات في وقته المقدر له، وفي «أجله المسمى» عند الله، فلا انفصال في الأقدار بين المسببات وأسبابها بحال⁽¹⁾.

وقد يشكل على بعض الناس مواضع في كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ فيقول بعضهم: إذا كان الله علم كل ما هو كائن، وكتب ذلك كله عنده في كتاب الله فما معنى قوله: ﴿يَمَحُورُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّئُ﴾ [الرعد: 39].

وإذا كانت الأرزاق والأعمال والآجال مكتوبة لا تزيد ولا تنقص فما توجيهكم لقوله ﷺ: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»⁽²⁾.

وكيف تفسرون قول نوح لقومه: ﴿إِن أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَقَوْهُ وَأَطِيعُونَ ﴿٣١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: 3].

[4].

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 60.

(2) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان رقم 1657، والقضاء والقدر، عمر سليمان الأشقر، ص: 66.

والجواب أن الأرزاق والأعمار نوعان:

نوع جرى به القدر وكتب في أم الكتاب، فهذا لا يتغير ولا يتبدل، ونوع أعلم الله به ملائكته فهذا هو الذي يزيد وينقص، ولذلك قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الزهد: 39]، وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي قدر الله فيه الأمور على ما هي عليه، ففي كتب الملائكة يزيد العمر وينقص وكذلك الرزق بحسب الأسباب، فإن الملائكة يكتبون له رزقاً وأجلاً، فإذا وصل رحمه زيد له في الرزق والأجل، وإلا فإنه ينقص له منهما⁽¹⁾.

والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيد فإن الله يأمر الملك أن يكتب لعبده أجلاً، فإن وصل رحمه، فيأمره بأن يزيده في أجله وورزقه والملك لا يعلم أيزاد له في ذلك أم لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لم يتقدم ولم يتأخر⁽²⁾.

ثانياً: قدرة الله ﷻ:

القدر والقدرة والمقدار على الشيء: القدرة عليه، وقدرت الشيء: أفدره قدراً، من التقدير، وفي الحديث: «فإن غم عليكم فأقدروا له»⁽³⁾.

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية (8 / 540)، القضاء والقدر عمر الأشقر، ص: 67.

(2) المصدر السابق (8 / 517)، القضاء والقدر عمر الأشقر، ص: 67.

(3) مع الله، سلمان العودة، ص: 233، البخاري رقم 1900.

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91] أي: ما عظموا الله حق تعظيمه⁽¹⁾.

والقدير: أبلغ في الوصف بالقدرة من ﴿الْقَادِرُ﴾ و﴿مُقَدِّرٌ﴾: من اقتدر وهو أبلغ.

وقد ورد اسم الله ﴿الْقَادِرُ﴾ سبحانه اثنتي عشرة مرة خمس منها بصيغة الجمع، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا وَّيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْ حَتَّىٰ نَصْرِيكَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ [الأنعام: 65].

- وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُزِيلَكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: 95].

- وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: 81].

- وقال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: 23].

وورد اسم الله ﴿الْقَادِرُ﴾ سبحانه خمساً وأربعين مرة منها قوله تعالى: ﴿أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 148].

- وقال تعالى: ﴿إِنْ يُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءِ فِعَالٍ

(1) مع الله، سلمان العودة، ص: 233.

اللَّهُ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ [النساء: 149] .

- وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 40] .

- وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39] .

وورد اسم المقتدر في قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45] .

- وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْتُم مِّنْهُمْ أَهْلًا مَّقْتَدِرِينَ﴾ [القمر: 42] .

- وقال تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 55] .

والله هو القادر على كل شيء، لا يعجزه شيء ولا يفوته مطلوب، بخلاف خلقه، فهو سبحانه لا يتطرق إلى العجز ولا يعترضه فتور.

و﴿الْقَادِرُ﴾ سبحانه هو من يتيسر له ما يريد على ما يريد لظهور أفعاله، ولا يظهر الفعل اختياراً إلا من قادر غير عاجز، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 20]، فوصف نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع، لأنه حذر المنافقين بأسه وخطوته، وأخبرهم أنه محيط بهم، ﴿الْقَدِيرُ﴾ هو ﴿الْقَادِرُ﴾، كما أن ﴿الْعَلِيمُ﴾ هو الـ﴿عَلِيمُ﴾ ﴿الْقَدِيرُ﴾ سبحانه كامل القدرة، فبقدرته أوجد الموجودات وبقدرته دبرها وبقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت ويبعث العباد

للجزاء وبقدرته يقلب القلوب على ما يشاء ويريد⁽¹⁾.

قال الشاعر:

وهو القدير وليس يُعجزه إذا ما رام شيئاً قط ذو سلطان⁽²⁾

ثالثاً: ثمار الإيمان بالقدر:

للإيمان بالقدر . كما جاء في القرآن والسنة . وكما فهمه سلف الأمة ثمار مباركة وآثار طيبة، في عقلية المسلم ونفسيته، في وجدانه وإرادته، وعلاقته بنفسه وبربه، وبمن حوله، وما حوله، وفي الحياة الإسلامية بصفة عامة، يشهد بها كل ذي لب، ويلمسها كل ذي بصر، لما لها من تأثير إيجابي في السلوك الخاص والعام وفي السلم والحرب، وفي اليسر والعسر والرخاء والشدة، والنعماء والبأساء⁽³⁾، ومن أهم هذه الثمار والآثار:

1. الإقدام على عظام الأمور:

الإيمان بالقدر في حياة المؤمن أقوى حافز للعمل الصالح والإقدام على عظام الأمور بثبات وعزم وثقة، ولقد كانت الصورة الصحيحة للإيمان بالقدر في حياة الأجيال الأولى من المسلمين هي التي صنعت تلك العجائب التي سجلها تاريخهم، والتي ثبتت الدعوة في الأرض ونشرتها على نطاق واسع في فترة وجيزة من الزمن لا مثيل لها . في قصرها . في التاريخ، وهي التي أقامت هذا البناء

(1) مع الله، سلمان العودة، ص: 235.

(2) المصدر نفسه، ص: 234.

(3) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 88.

الشاهق في كل ميدان من ميادين الحياة، نعم، لقد كان من أول ثماره الباهرة ذلك الاستبسال في الجهاد في سبيل الله وفي سبيل نشر الدعوة⁽¹⁾، فقد كانوا لا يخافون الموت، لأنهم يوقنون بأن الآجال محددة لا تتأخر ولا تتقدم لحظة واحدة، ولما كانت هذه العقيدة راسخة في قلوب المؤمنين ثبتوا في القتال وعزموا على مواصلة الجهاد، فجاءت ملاحم تحمل أروع الأمثلة على الثبات والصمود أمام الأعداء مهما كانت قوتهم⁽²⁾، ومهما كان عددهم، لقد أيقنوا بقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51].

فإذا كان لا يصيب الإنسان إلا ما كتبه الله له، سواء كان قاعداً في بيته أو في ميدان القتال، ففيم الجبن وفيم الفرار من القتال خوفاً من الموت؟ فهل القتال هو الذي يقتل؟ أم قدر الله لإنسان ما أن يموت في لحظة معينة في حالة معينة هو الذي يميته؟ وإذا كان كتب عليه الموت فهل يعفيه منه ألا يذهب إلى القتال؟ وإن كان لم يكتب عليه فهل يقتله الذهاب إلى الميدان؟

هكذا كان الأمر في حستهم فأقبلوا على الجهاد في ثقة وثبات وعزم، وكان منهم ما سجله التاريخ من مواقف رائعة من الشجاعة والصبر على الشدة مع الاطمئنان إلى قدرة الله سبحانه، ولقد وعى المسلمون كذلك الدرس الذي نزل عليهم في سورة آل عمران بشأن غزوة أحد، حين قال المنافقون: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [آل

(1) ركائز الإيمان محمد قطب، ص: 426.

(2) الإيمان بالقضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص: 454.

عمران: 154] فرد عليهم : ﴿قُلْ إِنْ أَلَأَمْتُمْ كَلِمَةً لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 154]
 وحين قالوا : ﴿لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ [آل
 عمران: 154] فرد عليهم : ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ
 عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: 154] وحين قال الله
 للمؤمنين : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
 إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا
 لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِك حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يَخْتِمْ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتْتُمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ
 خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتْتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾
 [آل عمران: 156 - 158]. وعوه فأيقنوا أنه لا يموت إلا من كتب عليه
 الموت ولو كان في مضجعه في بيته، وأنه إن لم يكن كتب عليه
 الموت في تلك اللحظة فكل هول الحرب وكل سهام الأعداء
 وسيوفهم لن تصيبه بالموت، وأيقنوا كذلك أنه حين يكون الإنسان
 في القتال ويموت - بقدر من الله - فأمامه المشوبة والأجر وهو
 الكاسب بهذا القدر الذي قدره له الله، لذلك كان القتال في سبيل الله
 أمراً محبباً إلى نفوسهم، فنصروا الله فنصرهم وثبت أقدامهم⁽¹⁾، كما
 وعد سبحانه : ﴿إِنْ تَصْرُوْا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7] .

كذلك كان الإيمان بالقدر على هذه الصورة هو حافزهم
 للانسياح في الارض، سواء لنشر الدعوة، أو طلب الرزق، أو
 اكتشاف المجهول من الأرض، فكان لهم في كل ميدان نشاط
 ملحوظ وآثار مشهودة، ففي نشر الدعوة نجد أن الإسلام قد امتد من

(1) ركائز الإيمان محمد قطب، ص: 427.

المحيط غرباً إلى الهند شرقاً في فترة من الزمن لا تتجاوز قرن وهي سرعة لا مثيل لها في التاريخ، وانتشر مع الإسلام سلطان الدولة الإسلامية بما أربه أعداء الله.

وانتشر معه كذلك اللسان العربي بسرعة تفوق الوصف في انتشار اللغات في الأرض وفي ميدان طلب الرزق تدفقت الثروات على العالم الإسلامي حتى صار المسلمون أغنى أمة في الأرض، لأنهم يجوبون البحار والقفار تجاراً وصناعاً فيأتي إليهم المال من كل سبيل وتتاح معه فرصة العمران والحضارة، وفي ميدان الكشف الجغرافي كان المسلمون هم الذين ارتادوا البقاع المجهولة - أول من ارتادها - ورسوموا لها الخرائط الجغرافية الدقيقة التي مكنت «فاسكوا داجاما» و«ماجلان» فيما بعد من القيام برحلاتهما حول أفريقيا وآسيا، كما كشفوا منابع النيل ورسوموا خرائطه التي جاء المكتشفون الأوروبيون على هداها من بعد ليزعموا أنهم هم المكتشفون، وهكذا امتدت الحياة بجميع صورها شرقاً وغرباً بهذا الدافع الإيماني العميق⁽¹⁾.

2. القضاء على الكسل والتواكل:

إن جموع المسلمين قد انحرفت في العصور الأخيرة في عقيدة القدر بشأن ما يجري في الحياة الدنيا، لقد أصابهم التواكل فيما أصابهم من انحرافات، وأدى بهم التواكل إلى العجز والكسل والقعود، لقد فهم - بعض الناس - من معنى أنه لا يحدث في الكون إلا ما يريد الله، أنه لا حاجة للإنسان أن يعمل، فإن قدر الله ماض

(1) ركائز الإيمان، محمد قطب، ص: 248.

سواء عمل الإنسان أو لم يعمل، فلا ضرورة للكدر في طلب الرزق لأن: مالك سوف يأتيك، ولا ضرورة للنشاط والحركة لأنها في زعمهم ضد التوكل الصحيح، كما فهموا كذلك من معنى التسليم لقدر الله القعود عن تغيير ما أصاب الإنسان من فقر أو مرض أو جهل أو حتى معصية، لأن كل ذلك مقدر من عند الله فلا ينبغي مقاومته إنما ينبغي الاستسلام له! وهذا التواكل وهذه السلبية ليست من الإسلام في شيء على الإطلاق، وإلا فلو كانت من الإسلام فكيف غابت عن الرسول ﷺ وعن صحبه الكرام الذين تلقوا عنه المفاهيم الصحيحة لهذا الدين⁽¹⁾؟

والفهم الصالح لم يفهم قط من عقيدة القدر هذا الفهم الخاطئ الذي يلغي مسؤولية الإنسان عن عمله؟

لقد فهم المسلمون من درس أحد أن ما وقع لهم كان مقدرأ لهم عند الله، ولكنه كان في ذات الوقت من عند أنفسهم بسبب معصيتهم للرسول ﷺ: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنِ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [آل عمران: 165 . 166].

فقد وعى المسلمون من الدرس أن كون الهزيمة تمت بقدر الله لا ينافي أنها في ذات الوقت ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: أن وقوع شيء بقدر الله لا ينفى مسؤولية الإنسان عن خطئه، فليس لمخطئ أن يهز كتفيه ويقول: إنما وقع الخطأ مني بقدر من الله، ولقد قدر الله ألا

(1) ركائز الإيمان، محمد قطب، ص: 430.

أخطئ لما أخطأت فلست مسؤولاً عن الخطأ، كلا: إن الإيمان بالقدر لا يتنافى فيه أن يكون الحدث مقدرًا من عند الله، وأن يكون الإنسان مسؤولاً عن عمله في ذات الوقت، كذلك وعى المسلمون من وقعة أحد وأحداثها درساً آخر.

إن عليهم أن يسلموا لقدر الله، ولكن ما معنى التسليم؟ هل معناه القعود عن تغيير ما أصابهم، ولو أنه قد أصابهم بقدر من الله؟

إنما قال لهم: ﴿فَأَنْبِئْكُمْ عَمَّا يُعَمَّرُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 153].

فالحزن يفتت العزيمة ويوهنها، وهو الأمر الذي لا يريد الله لهم، فوجههم إلى التسليم بقدر الله لكيلا يحزنوا وتتفتت عزيمتهم، ولكن هل طلب منهم الاستسلام لما أصابهم بمعنى عدم العمل على تغييره⁽¹⁾.

إن أحداث المعركة سارت في خط مختلف تماماً، فقد جمع الله الرسول ﷺ مشاعر المسلمين وعزائمهم كما جمع صفوفهم ليدخل بهم المعركة مرة أخرى على أثر الهزيمة. وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٧﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٨﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ سُوءٌ وَانْتَبَعُوا رِضْوَانَهُ وَاللَّهُ ذُو

(1) ركائز الإيمان، محمد قطب، ص: 431.

فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿آل عمران: 172-174﴾.

لقد صرف الله أعداءهم فلم تقع المعركة، ولكنهم كانوا قد استعدوا للقتال تماماً، استعدوا له بأرواحهم ومشاعرهم، فجمعوا عزائمهم رغم تخويف الناس لهم وعزموا على لقاء العدو متكئين على الله، وهذا هو التوكل الحق الذي يطلبه الله من المسلمين.

إن القعود عن تغيير الأمر الواقع بحجة أنه واقع بقدر من الله جهالة عظيمة لا تنبغي للمسلم، نعم إن ما وقع بالفعل قد وقع بقدر من الله. وإن كان لا ينفي مسؤولية الإنسان. ولكن من يعلم ما يكون عليه قدر الله غداً، بل في اللحظة القادمة، هل علم ذلك القاعد المتواكل أن قدر الله القادم لن يكون مغايراً لقدر الله الواقع؟ أليس في الاحتمال أن الله قد قدر للحظة القادمة قدراً غير القدر الذي كان في اللحظة الماضية؟ فكيف يقعد عن العمل بزعم أنه متوكل على الله مستسلم لقدره⁽¹⁾؟

إن الفهم الصحيح للإيمان بالقدر، لا ينفي مسؤولية الإنسان عن عمله، ولا يدعو إلى القعود عن تغيير الواقع، يدعو إلى التواكل وعدم الأخذ بالأسباب انتظاراً لقدر الله وذلك هو الفهم الذي ينبغي أن يعود المسلمون إليه، ليزول عنهم ما أصابهم من فقر وجهل ومرض وتواكل وعجز، وما ترتب على ذلك كله من غلبة عدوهم عليهم، وهوائهم على أنفسهم وعلى الناس⁽²⁾.

(1) ركائز الإيمان، محمد قطب، ص: 432.

(2) المصدر نفسه، ص: 433.

3 الثبات في مواجهة الطغيان:

ومن ثمار الإيمان بالقدر، أنه يهب صاحبه ثباتاً ورسوخاً في مقاومة الباطل ومواجهة الظلم والطغيان، وإنكار المنكر، لا يهاب فرعوناً متألهاً ولا طاغوتاً متجبراً، وذلك أن الناس عادة يخافون على أمرين نفيسين عندهم وهما:

العمر والرزق، والعمر محتوم والرزق مقسوم، ولهذا وقف المؤمنون في وجه الطغاة والجبارين، ولم يعأوا بجبروتهم ولم يهنوا أمام قوتهم وطغيانهم، وفي عصرنا رأينا العلماء والدعاة الشامخين يواجهون المستعمرين وأذئاب المستعمرين من الملوك والرؤساء، لا يبالون بما يصيبهم في سبيل الله⁽¹⁾.

فالإيمان بالقدر من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في ميدان النزال غير هيابين ولا وجلين، وكان الواحد منهم يطلب الموت في مظانه، ويرمي بنفسه في مضائق يظن فيها هلكته، ثم تراه يموت على فراشه، فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيداً وهو الذي كان يقتحم الأخطار والأهوال⁽²⁾، فهذا خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة وأدرك ذلك بكى وقال: ما من عمل أرجى عندي بعد لا إله إلا الله، من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين، بتها وأنا متترس والسماء تنهل عليّ، وأنا انتظر الصبح حتى أغير على الكفار، فعليكم بالجهاد، لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي.

(2) القضاء والقدر، عمر الأشقر، ص: 112.

برمح، وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء، لقد طلبت القتل في مظانه، فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي⁽¹⁾، وقد تصدى خالد لطفغيان الفرس والروم معاً.

4 - الصبر عند نزول المصائب:

ومن ثمرات الإيمان بالقدر الصبر عند نزول المصائب، فالمؤمن بالقدر لا يسيطر عليه الجزع والفرع، ولا يستبد به السخط والهلع، بل يستقبل مصائب الدهر بثبات، كثبات الجبال فقد استقر في أعماقه قول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٣٣] لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴿[الحديد: 22 . 23] (2).

فالإيمان بالقدر من أعظم الأدوية التي تعين المؤمن على الشدائد والمصائب والبلايا، فهذه ثمرة من أعظم ثمرات الإيمان بالقدر⁽³⁾، وكان رسول الله ﷺ يغرس في نفوس أفراد الأمة الإسلامية هذا الإيمان ويرشدهم ويعلمهم كيف يتعاملوا مع المصائب والشدائد، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال: كنا عند النبي ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيها لها أو ابناً لها في الموت، فقال الرسول: «أرجع إليها فأخبرها أن الله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى»⁽⁴⁾.

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي (1/ 382)، عمر بن الخطاب للصّلاّبي، ص: 351.

(2) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 91.

(3) الإيمان بالقدر محمد حسان، ص: 250.

(4) البخاري رقم 6228، مسلم 923.

ففي قوله ﷺ: «إن الله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى»: معناه الحث على الصبر والتسليم لقضاء الله تعالى وتقديره أن هذا الذي أخذ منكم كان له لا لكم فلم يأخذ إلا ما هو له، فينبغي أن لا تجزعوا كما لا يجزع من استردت منه وديعة، وقوله ﷺ: «وله ما أعطى» معناه أن ما وهبه لكم ليس خارجاً عن ملكه بل هو ﷺ يفعل ما يشاء، وقوله ﷺ: «وكل شيء عنده بأجل مسمى» معناه: أصبروا ولا تجزعوا فإن كل من يأت قد انقضى أجله المسمى فمحال تقدمه أو تأخره عنه، فإذا علمتم هذا كله فأصبروا واحتسبوا ما نزل بكم والله أعلم، وهذا الحديث من قواعد الإسلام المشتملة على جمل من أصول الدين وفروعه والآداب⁽¹⁾، والمراد بأصول الدين هنا الإيمان بالقضاء والقدر⁽²⁾.

ومن الأذكار التي علمها رسول الله ﷺ للأمة قوله ﷺ: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»⁽³⁾.

وفي الحديث استحباب هذا الذكر عقب الصلوات، لما اشتمل عليه من ألفاظ التوحيد ونسبة الأفعال إلى الله والمنع والإعطاء وتمام القدرة⁽⁴⁾.

والمسلم يرضى ويسلم ويسلي نفسه بالصبر الجميل عند نزول

(1) شرح صحيح مسلم للنووي (6/ 224-225).

(2) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (2/ 816).

(3) مسلم رقم 593، البخاري رقم 844.

(4) فتح الباري (2/ 332-333).

المصائب، قال ﷺ: ﴿وَيَسِّرِ الصَّادِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: 155-157].

وتعلم الصحابة من رسول الله ﷺ هذا الدعاء العظيم، عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً»، قال: فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال: «بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»⁽¹⁾.

5 - الرضا والقناعة بما قسم الله :

ومن ثمار الإيمان بالقدر: رضا المؤمن بما قسم الله، وقناعته بما رزق الله، وهذا يثمر ثمرات طيبة في نفسية المؤمن وحياته.

أولها: عن القلب، فمن الناس من لو أوتي وادياً من ذهب لابتغى ثانياً، ولو أوتي ثانياً لتمنى ثالثاً، ومثله كجهنم يقال لها: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟

والغنى الحقيقي ليس إلا غنى النفس الذي قال عنه الرسول

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة (1/ 383)، رقم 199.

الكريم ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى عن النفس»⁽¹⁾.

وقال ﷺ: «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»⁽²⁾.

وقال الشاعر:

إن الغنى هو الغنى بنفسه ولو أنه عار المناكب حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافياً وإذا قنعت فبعض شيء كاف
ولا يعرف هذا الغنى النفسي إلا من رضى بما قسمه الله، وقنع
به.

والثاني: الإجمال في الطلب: فهو يسعى في رزقه، ويكدح في حياته، ولكن بإجمال واعتدال، وليس كأولئك الذين يلهثون أثناء النهار والليل مكوددي الأجسام، مشتتي القلوب، مهمومي النفوس، لا يشعرون بهدوء بال، ولا براحة نفس، ولا بإطمئنان فكير، فإن حصلوا على المزيد إزدادوا لهثاً وهما، وإن أخفقوا امتلثوا نكداً وغمماً⁽³⁾، وفي الحديث إن روح القدس نفث في روعي: «أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»⁽⁴⁾.

وثالثها: ألا يتطلع إلى ما ليس في وسعه وليس من شأنه

(1) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم 624.

(2) صحيح الجامع الصغير رقم 100.

(3) الإيمان بالقدر للقرضائي، ص: 93.

(4) صحيح الجامع الصغير رقم 2085.

ويرضى بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره وفي حدود ما قدر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش متمنياً ما لا يتيسر له، متطلعاً إلى ما وهب لغيره ولم يوهب له، وذلك كتمني الشيخ أن يكون له قوة الشباب، وتطلع المرأة الدميمة إلى الحسناء في غيرة وحسد، ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل في حسرة وتلهف، وطموح البدوي الذي يعيش في أرض فقراء بطبيعتها إلى رفاهية الحياة وأسباب النعيم، وكما حدث في عهد الرسول حين تمنى النساء أن يكن لهن ما للرجال، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَسَعَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: 32] (1).

إن الإيمان بالقدر يبعث إلى القناعة وعزة النفس والإجمال في الطلب وترك التكالب على الدنيا والتحرر من رق المخلوقين وقطع الطمع مما في أيديهم، والتوجه بالقلب إلى رب العالمين، وهذا أسمى فلاحه ورأس نجاحه قال الشاعر:

أفادتني القناعة كل عز وهل عز أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعة
تجز ربحاً وتغنى عن بخيل وتنعم في الجنان بصبر ساعة⁽²⁾

6. العز في طلب الحوائج:

ومن ثمار الإيمان بالقدر، أن يطلب المؤمن حاجته عند من هي عنده بعزة نفس لا يطاق رأسه ولا يذل نفسه ولا يدني ظهره

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 94.

(2) الوسطية في القرآن الكريم للصلاحي، ص: 343.

لمخلوق، إن الله تعالى كتب العزة للمؤمن فلا ينبغي له أن يفرط فيها، قال ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8] .

فلا يحل لمؤمن أن يذل نفسه لمخلوق مثله من أجل حاجة عنده، فقد علم النبي ﷺ ابن عمه . عبد الله بن عباس . هذه الكلمات العظيمة: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»⁽¹⁾ .

7 . السكينة وراحة النفس وسكون القلب :

فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، وهي هدف منشود، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها، وإنك لتجد عند خواص المسلمين من العلماء العاملين، والعباد القانتين المتبعين، من سكون القلب وطمأنينة النفس ما لا يخطر على بال ولا يدور حول ما يشبهه خيال، فلهم في ذلك الشأن القدر المعلى والنصيب الأوفى، فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يقول: أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر⁽²⁾ .

وهذا ابن تيمية يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم

(1) سنن الترمذي رقم 2516 حسن صحيح.

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص: 97.

يدخل جنة الآخرة⁽¹⁾، ويقول مقولته المشهورة التي قالها عندما اقتيد إلى السجن: ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي ويستاني في صدري، أينما رحلت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة⁽²⁾.

بل إنك تجد عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال، ويرد اليقين ما لا تجده عند كبار الكتاب والمفكرين والأطباء من غير المسلمين، فكم من الأطباء غير المسلمين على سبيل المثال من يعجب، ويذهب به العجب كل مذهب، وذلك إذا كان لديه مريض مسلم واكتشف أنه مصاب بداء خطير . كالسرطان . مثلاً فترى هذا الطبيب يحتار في كيفية إخبار هذا المريض ومصارحته بعلته، فتجده يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى، وتجده يمهد الطريق، ويضع المقدمات، كل ذلك خشية من ردة فعل المريض إزاء هذا الخبر، وما أن يعلمه بمرضه ويخبره بعلته، إلا ويفاجأ بأن هذا المريض يستقبل هذا الخبر بنفس راضية وصدور رحب، وسكينة وهدوء، لقد أدهش كثيراً من هؤلاء إيمان المسلمين بالقضاء والقدر فكتبوا في هذا الشأن معبرين عن دهشتهم، مسجلين شهادتهم بقوة عزائم المسلمين، وارتفاع معنوياتهم، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة⁽³⁾، فهذه شهادة حق من قوم حرموا الإيمان بالله وبقضائه وقدره.

ومليحة شهدت لها ضراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

(1) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية لمرعي الحنبلي، ص: 34.

(2) شيخ الإسلام ابن تيمية، جهاده ودعوته أحمد القطان، ص: 101.

(3) الإيمان بالقضاء والقدر محمد إبراهيم الحمد، ص: 32.

ومن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا في ذلك . الكاتب المشهور «ر. ن. سي. بودلي» مؤلف كتابي «رياح على الصحراء» و«الرسول» وأربعة عشر كتاباً أخرى، والذي أورد رأيه «دبل كارينجي» في كتابه «دع القلق وأبدأ الحياة» في مقالة بعنوان «عشت في جنة الله» يقول بودلي: في عام 1918م وليت ظهري العالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر أفريقيا الشمالية، الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء وقضيت هنالك سبعة أعوام، وأتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم وأكل من طعامهم، واتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام حتى إنني ألقت كتاباً عن محمد ﷺ وعنوانه «الرسول»، وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي، وأحفلها بالسلام، والإطمئنان والرضا بالحياة، وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق، فهم . بوصفهم مسلمين . يؤمنون بالقضاء والقدر، ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً حيناً، فهم لا يتعجلون أمراً، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقاً على أمر، إنهم يؤمنون بأن ما قدر يكون وأن الفرد منهم لئن يُصيبه إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي كلاً⁽¹⁾. ثم أردف قائلاً: ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه، هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال وادي «الرون» في فرنسا وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، ولكن العرب لم يشكو إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة

(1) الوسطية في القرآن الكريم للصلاحي، ص: 344.

«قضاء مكتوب»، لكنهم ما أن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيط بحياتهم، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى، قال رئيس القبيلة الشيخ: لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء، ولكن حمداً لله وشكراً، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد⁽¹⁾.

وثمة حادثة أخرى، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوماً فانفجرت إحدى الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضر إطاري احتياطي، وتولاني الغضب وانتابني القلق والهجم، وسألت صاحبي من الأعراب: ماذا وعسى أن نفعل؟ فذكرني بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق، ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، لكنها ما لبثت أن كفت عن السير، وعلمت أن البنزين قد نفذ، وهنالك أيضاً لم تثر نائرة أحد من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوءهم، بل مضوا يقطعون الطريق سيراً على الأقدام⁽²⁾.

وبعد أن استعرض بودلي تجربته مع عرب الصحراء علق بقوله: قد اقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرحل - أن مرض النفوس، والسكيرين الذي يحفل بهم أمريكا، وأوروبا - ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً

(1) دع القلق وأبدأ الحياة، ديل كارنيجي، ص: 290، 291.

(2) المصدر نفسه، ص: 290-291.

لها، إنني لما أعان شيئاً من القلق قط وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة والقناعة والرضا⁽¹⁾.

وأخيراً ختم كلامه بقوله: وخلاصة القول أنني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء. ما زلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة، ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير⁽²⁾.

8. المؤمن لا يعيش بين «لو» و«ليت»:

إن من أهم عوامل القلق الذي يفقد الإنسان سكينة النفس وأمنها ورضاهها، هو تحسره على الماضي وسخطه على الحاضر وخوفه من المستقبل.

إن بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر، فيظل شهوراً وأعواماً آلامها، ويستعيد ذكرياتها القائمة، متحسراً تارة، متمنياً أخرى، شعاره: ليتني فعلت،، وليتني تركت، وأني فعلت كذا لكان كذا، وقديماً قال الشاعر:

ليت شعري وأين من «ليت»؟ إن «ليتاً» وإن «لوا» غناء
ولذا ينصح الأطباء النفسانيون والمرشدون الاجتماعيون،
ورجال التربية، ورجال العمل، أن ينسى الإنسان آلام أمسه، ويعيش

(1) دع القلق وابدأ الحياة، ديل كارنيجي، ص: 291-295.

(2) الوسطية في القرآن الكريم، ص: 346.

في واقع يومه، فإن الماضي بعد أن ولّى لا يعود.

ما مضى فات، والمؤمل غيب . ولك الساعة التي أنت فيها وقد صور هذا المعنى أحد المحاضرين بإحدى الجامعات بأمريكا تصويراً بديعاً لطلبته حين سألهم: كم منكم مارس نشر الخشب؟ فرجع كثير من الطلبة . . أصابعهم، فعاد يسألهم: وكم منكم مارس نشر نشارة الخشب؟ فلم يرفع أحد منهم إصبعه، وعندئذ قال المحاضر: بالطبع لا يمكن لأحد أن ينشر نشارة الخشب، فهي منشورة فعلاً. وكذلك الحال مع الماضي: فعندما يتتابكم القلق لأمر حدث في الماضي، فاعلموا أنكم تمارسون نشر النشارة!.

وقد نقل هذا التصوير «دليل كارينجي» في كتابه «دع القلق وابدأ الحياة»، كما نقل قول بعضهم: لقد وجدت أن القلق على الماضي لا يجدي شيئاً تماماً، كما لا يجديك أن تطحن الطحين، ولا أن تنشر النشارة، وكل ما يجديك إياه القلق هو: أن يرسم التجاعيد على وجهك، أو يصيبك بقرحة في المعدة⁽¹⁾.

ولكن الضعف الإنساني يغلب على الكثيرين، فيجعلهم يطحنون المطحون، وينشرون المنشور، ويبكون على أمس الذاهب، ويعضون على أيديهم أسفاً على ما فات، ويقبلون حسرة ما مضى، وأبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة، والأفكار السقيمة هو المؤمن الذي قوي يقينه بربه، وآمن بقضائه وقدره، فلا

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 97، دع القلق، ص: 173.

يسلم نفسه فريسة للماضي وأحداثه، بل يعتقد أنه أمر قضاءه الله كان لا بد أن ينفذ، وما أصابه من قضاء الله لا يقابل بغير الرضا والتسليم⁽¹⁾.

إن شعار المؤمن دائماً: قدر الله وما شاء فعل الحمد لله على كل حال، وبهذا لا يأس على ما فات ولا يحيا في خضم أليم من الذكريات وحسبه أن يتلو قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11].

وقال ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»⁽²⁾.

فقد أمر المؤمن في هذا الحديث بالحرص على ما ينفعه سواء في دينه أم دنياه، والاستعانة بالله على ذلك فهو الذي يهيئ له الأسباب، ويزيل من طريقه العوائق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُكَ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].

وقال الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده
ومن العجز المذموم هنا: إلقاء الأحمال على القدر والاحتجاج به في الإعفاء من المسؤولية، وقديماً قيل: من دلائل العجز كثرة

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 97.

(2) مسلم رقم 2664.

الإحالة على المقادير، وحديثاً قال الشاعر الفيلسوف الدكتور محمد إقبال: المسلم الضعيف يحتج بقضاء الله وقدره، أما المسلم القوي يعتقد أنه قدر الله الذي لا يغلب وقضاؤه الذي لا يرد، وقد روي أن بعض الصحابة . في زمن الفتوح الإسلامية . سأله أحد قادة الفرس: من أنتم؟ وما حقيقتكم؟ فقال له: نحن قدر الله، ابتلاكم الله بنا، وابتلانا بكم، فلو كنتم في سحابة في السماء لصعدنا إليكم، أو لهبطتم إلينا⁽¹⁾.

إن من وصايا رسول الله ﷺ للمسلم إذا أصابه شيء من شدائد الدنيا وابتلاءاتها - وما أكثرها - ألا يسلم نفسه للتحسر والأسى على ما فاته، فيصبح ويمسي، وهو يمضغ كلمات الأسى والأسف، ويقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا على سبيل التحسر والتمني، ويجتر الذكريات الحزينة، بل أمره أن يرد الأمر هذا إلى قدر الله، ويسلم أمره وقضائه قائلاً: قدر الله وما شاء الله فعل، معتبراً أن الخير فيما اختاره له، ثم هو لا يقدر على غير ذلك، وليتجه . بعد ذلك . للمستقبل ويعمل ويبني وينتج، لا إلى «اللؤلؤة» التي يقول فيها: «لو أني فعلت، ولو أني تركت» فإن «لو» هذه «لو» المتمنية والمتحسرة تفتح عمل الشيطان، وعمله ليس وراءه إلا الضياع والخسران⁽²⁾.

9 . الخوف والحذر من الله :

فالمؤمن بالقدر على حذر من الله، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99] .

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 100.

(2) المصدر نفسه، ص: 101.

فقلوب العباد دائمة التقلب والتغير، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والفتن التي توجه سهامها إلى القلوب كثيرة، والمؤمن يحذر دائماً أن يأتيه ما يضره كما يخشى أن يختم له بخاتمة سيئة، وهذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول، بل يدفعه إلى المجاهدة الدائبة للاستقامة والإكثار من الصالحات ومجانبة المعاصي والموبقات، كما يبقى قلب العبد معلقاً بخالقه، يدعوه ويرجوه ويستعينه ويسأله الثبات على الحق، كما يسأله الرشد والسداد⁽¹⁾.

10 . الخلاص من الشرك :

لا يتم توحيد الله إلا لمن أقرَّ أن الله وحده الخالق لكل شيء في الكون، وأن إرادته ماضية في خلقه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فكل المعذبين بالقدر لم يوحدوا ربهم، ولم يعرفوه حق معرفته، والإيمان بالقدر مفرق طريق بين التوحيد والشرك، فالمؤمن بالقدر يُقرُّ بأن هذا الكون وما فيه صادر عن إله واحد ومعبود واحد، ومن لم يؤمن هذا الإيمان فإنه يجعل من دون الله آلهة وأرباباً⁽²⁾.

11 . الاستقامة :

والإيمان بالقدر من أكبر العوامل التي تكون سبباً في استقامة المسلم وخاصة في معاملته للآخرين، فحين يقصر في حقه أحد أو يسيء إليه، أو يرد إحسانه بالإساءة أو ينال من عرضه بغير حق، تجده يعفو ويصفح، لأنه يعلم أن ذلك مقدر، وهذا إنما يحسن إذا

(1) القضاء والقدر د. عمر الأشقر، ص: 111.

(2) المصدر نفسه، ص: 110.

كان في حق نفسه، أما في حق الله فلا يجوز العفو ولا التعلل بالقدر، لأن القدر إنما يحتج به في المصائب لا في المعائب⁽¹⁾.

والإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضي في حياته على منهج سواء لا تبطره النعمة، ولا تئسه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، لا بذكائه وحسن تدبيره ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]، ولا يكون حاله حال قارون الذي بغى على قومه واستطال عليهم بما أعطاه الله من كنوز وأموال.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرُونَ كَانَتْ مِن قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ وَعَائِنَهُ مِمَّنَ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَاجِعَهُ لَنُنَوِّئُ بِالْمُصِيبَةِ أُولِيَ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَاتَّبِعْ فِيمَا أَمَرَكَ اللَّهُ أَلَدَارَ الْآخِرَةِ وَلَا تَسْرَقْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبِغْ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 76 - 78].

ويكون المؤمن بالقدر على الاستقامة في حالة السراء والضراء⁽²⁾.

12 - القضاء على الأمراض التي تعصف بالمجتمعات:

الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تعصف بالمجتمعات وتزرع الأحقاد بين المؤمنين، وذلك مثل رذيلة الحسد، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، لأنه هو الذي

(1) القضاء والقدر للمحمود، ص: 457.

(2) القضاء والقدر للأشقر، ص: 110.

رزقهم وقدر لهم ذلك، وهو يعلم حين يحسد غيره إنما يعترض على المقدور، وهكذا فالمؤمن يسعى لعمل الخير، ويحب للناس ما يحب لنفسه، فإن وصل إلى ما يصبو إليه حمد الله وشكره على نعمه، وإن لم يصل إلى شيء من ذلك صبر ولم يجزع، ولم يحقد على غيره ممن نال من الفضل ما لم ينله، لأن الله هو الذي يقسم الأرزاق فيعطي ويمنع وكل ذلك ابتلاء وامتحان منه ﷻ لخلقه⁽¹⁾.

قال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمور الدنيا، لأنه إن كان. أي هذا الرجل. من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا وهو مصيره إلى الجنة وإن كان. هذا الرجل. من أهل النار فكيف أحسده على شيء من أمور الدنيا، وهو يصير إلى النار⁽²⁾.

فالحسد يحرق صاحبه، والمحسود قد يُصابُ بالعين إن كانت العين خبيثة لأن النبي ﷺ يقول: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر، سبقته العين»⁽³⁾.

وقال ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً»⁽⁴⁾.

وعلاج الحسد بالرضى بالقضاء والقدر، وتارة بالزهد في

(1) القضاء والقدر للمحمود، ص: 453.

(2) مختصر منهاج القاصدين، ص: 169.

(3) مسلم، رقم 2188.

(4) البخاري رقم 6065، مسلم رقم 2559.

الدنيا، وتارة بما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى المؤمن بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً ولا ينطق، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته⁽¹⁾. يعني: إذا لم يحول الذي في نفسه إلى كلمات حاكمة حاسدة أو إلى أفعال حاكمة حاسدة لا يضره ما تحدث به النفس أحياناً، فالنفس قد جبلت على مثل هذا⁽²⁾.

فالذي يؤمن بالقدر يحمل قلباً نظيفاً طاهراً من الغل والحقد والحسد والغش والضغينة لإخوانه، لأنه إن نظر إلى أخ من إخوانه ووجده في نعمة فهو يعلم يقيناً أن الذي أنعم عليه بهذا هو الله، فهو يحب لأخيه النعمة ويتضرع إلى الله ﷻ الذي رزق أخاه أن يرزقه بما رزق أخاه فهذه كلها أمراض القلب لا تداوى إلا بالإيمان بالله ﷻ⁽³⁾، والمؤمن بالقدر يعلم بأن الله يعطي ويمنع لحكمه، فإن من العباد من لا ينفعه إلا الغنى، ولو أفقره الله لأفسده ذلك، ومن العباد من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغناه الله لأفسده ذلك، ومن العباد من لا يصلحه إلا الصحة، ولو أسقمه الله لأفسده ذلك ومن العباد من لا يصلحه إلا المرض ولو صح لأفسده ذلك فلا يوجد شيء في الكون بدون حكمة وبغير حكمة، فالله هو الحكيم الخبير، سواء علمنا الحكمة أم جهلناها، فالله جل وعلا يقدر بحكمة وعلم⁽⁴⁾.

(1) القضاء والقدر، محمد حسان، ص: 273.

(2) القضاء والقدر، محمد حسان، ص: 273، مختصر منهاج القاصدين، ص: 169.

170.

(3) الإيمان بالقضاء والقدر، محمد حسان، ص: 268.

(4) المصدر نفسه، ص: 276.

13 - الاستعانة بالله :

ومن ثمار الإيمان بالقدر يعلم العبد يقيناً أن الأمر كله بيد الله خلقاً ومشية وتقديراً وإيجاداً، فالمستعان على حصول المراد هو الله وحده دون غيره، ولهذا فهو يستعين بالله على حصول مراده، ولأمر ما كانت سورة الفاتحة تقرأ في كل صلاة، بل لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، كما جاء في الحديث الشريف وفي هذه السورة الكريمة، قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] ، فإذا استعان بالله وباشر السبب وحصل المقصود فهذا من فضل الله، وإن لم يحصل المقصود لم ييأس المسلم فقد يكون في تأخير حصول المطلوب خير لا تعرف وجهه، فالله يعلم ونحن لا نعلم، وما نعلمه من حكمته تعالى شيء قليل للغاية بالنسبة لما لا نعرفه من هذه الحكمة وعليه . أي على المسلم . أن يجدد السعي مستعيناً بالله ولا يعجز عن ذلك ولا يقول لو إني فعلت كذا كان كذا، فإن هذا الكلام لا يفيد شيئاً وإنما يفتح باباً لعبث الشيطان⁽¹⁾.

14 - الاعتماد على الله وحده :

وصاحب الإيمان الصحيح بالقدر يباشر الأسباب بيده ولكن اعتماده على الله وحده لا على السبب، وهكذا كان حال سيدنا محمد ﷺ، فقد اختفى ﷺ في الغار وهذا منه ﷺ مباشرة لسبب الخلاص من المشركين ولكن ما كان اعتماده في الخلاص من المشركين على هذا السبب . ولا على غيره من الأسباب . ولكن كان اعتماده على الله وحده، قال تعالى: ﴿ثَأْنِيكَ أَتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي

(1) القضاء والقدر للبيهقي مقدمة عبد الكريم زيدان، ص: 30.

الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعْنَا ﴿﴾ [التوبة: 40].

ففتحه ﷺ واطمئنانه وسكينته وأمله في الخلاص، إنما كان ذلك بسبب تلك المعية الخاصة المتأنية من اعتماده على الله لا بسبب الاختفاء بالغار، وفي معركة بدر بعد أن نظم ﷺ الجيش وباشر الأسباب المادية للمعركة، رجع إلى العريش المنصوب له يدعو ربه ويكثر من الدعاء لأنه يعلم ﷺ أن النصر بيد الله والاعتماد في تحصيله يجب أن يكون على الله لا على الأسباب التي باشرها وإن كان لا بد من مباشرتها، وهذا هو التوكل الصحيح الذي هو من ثمرات الإيمان الصحيح بالقدر، ومن ثمرات التوكل كفاية الله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3]⁽¹⁾.

15 - الاعتراف بفضل الله :

والإيمان بالقدر يجعل موقف صاحبه عند فعل الحسنات موقفاً صحيحاً سليماً تترتب عليه طهارة قلبه من أرجاس كثيرة وبالتالي يستقيم سلوكه وتزكوا أخلاقه، وتفصيل ذلك أن صاحب الإيمان بالقدر يشاهد القدر ويستحضره في ذهنه عند فعل الحسنات وعمل الصالحات وهذه المشاهدة تثمر في نفسه الاعتراف بأن ما صدر منه وهو بمحض فضل الله عليه ليس له فيه شيء، وهذا يؤدي بدوره إلى قمع نوازع الكبر والغرور والعجب بنفسه والمن على الناس ونحو ذلك من الأقدار القلبية، لأن هذه الأقدار إنما تكون في الإنسان لاعتقاده أن فيه من معاني الامتياز على غيره ما يدعو إلى التكبر عليهم والعجب بنفسه والغرور ونحو ذلك، سواء كانت هذه المعاني

(1) القضاء والقدر لليهقي مقدمة عبد الكريم زيدان، ص: 32.

أعمالاً صالحة أو عبادة أو فعل حسنات أو قوة أو علماً أو سلطاناً أو مالاً أو كثرة اتباع ونحو ذلك، فإذا شاهد القدر عند فعله الحسنات، أو عند حصول شيء مما ذكرنا في يده، وعلم أن ذلك كله من عند الله وحده وما حصل على يديه هو محض فضل الله عليه، زال منه العجب والكبر والغرور والمنة على الله وعلى الناس، وبالتالي تجره هذه المشاهدة وما يترتب عليها إلى حمد الله وشكره وهكذا يفعل المؤمنون.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: 43]، وهداية الله للعبد تتضمن الأعمال الصالحة التي يعلمها، والعلم بالحقائق الدينية والعمل بها ونحو ذلك، كما أن مشاهدة القدر عند فعل الحسنات تفيد المسلم من ناحية أخرى هي استدامة افتقاره إلى الله وتصرفه بهذه الكيفية وثبته الدائم برحمة الله وطلب عفوه وعدم الالتفاف إلى عمله، واعتقاده الجازم بأن فوزه في الآخرة إنما يكون بمحض فضل الله ورحمته لا بعمله، لأن عمله الطيب إنما هو محض فضل الله فلا يستحق به الجنة وإنما يستحقها بفضل آخر من الله تعالى وبهذا جاء في الحديث الشريف: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»⁽¹⁾.

لكن قد يقول بعض الناس قولكم منقوض بقوله تعالى: ﴿تَلَكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43]، فدخول الجنة إنما يكون بالعمل فكيف تنفونه؟ أو تقللون من شأنه؟ والجواب أن الآية

(1) القضاء والقدر للبيهقي مقدمة عبد الكريم زيدان، ص: 33، البخاري (8/ 141)، مسلم (8/ 139).

الكريمة دلت على أن العمل سبب لدخول الجنة، فالباء في قوله تعالى ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هي باء السببية ونحن لا ننكر الأسباب، ولا كون العمل الصالح سبباً للجنة، الذي تتكلم فيه وننفيه أن يكون العمل عوضاً وثمناً مكافئاً لدخول الجنة، وهذا ما نفاه الحديث الشريف، فالباء في قوله ﷺ: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» هي باء المعاوضة والثنائية، كما في قول القائل اشترت هذا القلم بدرهم، فالعمل ليس عوضاً ولا ثمناً لدخول الجنة، ولا يصلح أبداً أن يكون عوضاً لها. ولتقريب هذا المعنى إلى الأذهان نقول أن الإنسان لو عبد ربه عمره كله وأتى بالصالحات فأية نسبة بين ما قدم من عمل في عمره المحدود وبين نعيم الجنة الدائم الممدود؟ أية نسبة بين عمل في زمن يتناهى، هو عمر الإنسان، وبين نعيم في زمن لا يتناهى هو نعيم الجنة؟ فلا بد إذن من فضل الله ورحمته ليظفر المؤمن بالجنة، وهذا المعنى لا يمكن تحصيله وانصباغ النفس به إلا بالمشاهدة الدائمة للقدر عند فعل الخير والحسنات، وفائدة أخرى لمشاهدة القدر عند فعل الحسنات هي أن المسلم إذا فعل خيراً لغيره وهذا من الحسنات، قد تتحرك فيه نوازع المنة على الغير وحب الاستعلاء عليه والاستشراف إلى طلب العوض منه، فهذه النوازع تموت إذا شاهد القدر وهو يفعل الخير لغيره لأنه بهذه المشاهدة يعلم أنه واسطة فقط لإيصال ما قدره الله من خير لذلك الغير، فلا داعي إذن لأنه يَمُنُّ هو على هذا الغير أن يستعلي عليه أو يتطلع إلى العوض منه، رأيت لو أن سيداً أرسل خادمه بهدية إلى شخص أيكون من حق الخادم أن يمن على المهدي إليه أو يستعلي عليه بهذه الهدية وهو محض واسطة لإيصالها إليه؟

وإذا كان صاحب الإيمان بالقدر لا يمن ولا يستعلي على من فعل له خيراً، فمن باب أولى أن لا يكون كذلك إذا لم يفعل له شيئاً، وبهذا المسلك الحميد من صاحب الإيمان بالقدر، أي يفعله الخير للناس دون منة أو استعلاء عليهم أو طلب العوض منهم يكون من الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّمَا تُطْمِئِنُّ بِوَجْهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: 9].

16 - الاستغناء بالخالق عن الخلق:

ومن ثمرات الإيمان بالقدر الاستغناء بالخالق عن المخلوق والحرص على رضى الله وحده ورجاؤه والخوف منه، والتوكل عليه والاستعانة به وتفويض الأمر إليه والانكسار بين يديه وتبليغ رسالات الله بدون وجل ولا تردد ولا خشية من أحد على وجه الأرض ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنَّ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39].

وقال ﷺ: «من أَرْضَى الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس»⁽¹⁾.

فالسعيد الذي لا يعنيه إلا رضا الله، ولا يعنيه الشر إطلاقاً، لا يلتفت إلى الخلق، لأنه على يقين أن رزقه بيد الخالق، لا بيد الخلق، وأن قلوب الخلق لا تقبل إليه بالحب والبغض إلا بتقدير الخالق، فهذا لا يعلق قلبه بالمخلوقين لا بشنائهم، لا ببغضهم، ولا بدمتهم، ولا بحمدهم، بل يعلق قلبه بربهم جل جلاله، فلا يعنيه إلا أن

(1) السلسلة الصحيحة للأباني رقم 2311.

يقول: قال الله: قال رسوله بما يرضي الله سبحانه لا بما يُحصَلُ به رضا الناس⁽¹⁾، فمن قال لله لا يخشى في الله لومة لائم، بالحكمة البالغة، والموعظة الحسنة، أسعده الله في الدنيا والآخرة⁽²⁾.

17 - الاعتراف بالذنب والمسارة للمغفرة والتوبة:

وصاحب الإيمان الصحيح بالقدر يشاهد نفسه عند فعل السيئات وارتكاب المنهيات ولا يحتج بالقدر على عصيانه لأنه لا حجة لأحد فيه، كما بيّنا، وإنما يرجع إلى نفسه ليوبخها من كبوتها حالاً كما ينهض من الوحل، إذا وقع فيه ويعقد العزم على عدم العودة إلى الذنب، ويتوجه إلى الله بالاعتراف بالذنب بانكسار قلب، وبهذا كله علّمنا القرآن وضرب لنا الأمثال وقص علينا موقف أنبيائه الكرام في مثل هذه الأحوال، قال تعالى عن نبيه آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّنَّ تَقْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: 16].

وفي الحديث الشريف: سيد الاستغفار أن تقول: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»⁽³⁾، أو كما قال عليه السلام: «أما من يشاهد القدر عند فعله السيئات محتجاً به دافعاً المسؤولية عن

(1) القضاء والقدر، محمد حسان، ص: 225.

(2) المصدر نفسه، ص: 225.

(3) صحيح البخاري رقم 6306.

نفسه فمثله مثل إبليس حيث قال كما أخبرنا الله عنه : ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا
أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْوَدَعِ فِي الْأَرْضِ وَالْأَعْيُنِ وَأَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 39].

وكان عاقبته كما هو معروف الطرد من رحمة الله⁽¹⁾.

هذه بعض ثمار الإيمان بالقدر وغيرها كثير:

- كأداء عبادة الله ﷻ، فالقدر مما تعبدنا الله سبحانه بالإيمان
به، وقوة الإيمان، فالذي يؤمن بالقدر يقوى إيمانه، فلا يتخلى عنه
لا يتزعزع أو يتضعع مهما ناله في ذلك السبيل.

- الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا
كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: 30].

- الكرم، فالذي يؤمن بالقدر، وأن الفقر والغنى بيد الله وأنه لا
يفتقر إلا إذا قدر الله له ذلك، فإنه ينفق ولا يبالي.

- إحسان الظن بالله قوة الرجاء، فالمؤمن بالقدر حسن الظن
بالله، قوي الرجاء به في كل أحواله.

عدم الاعتماد على الكهان والمنجمين المشعوذين والتمسح
بأثرية القبور، ودعاء غير الله، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير
الله، لأنها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً.

- ومن ثمرات الإيمان بالقدر: السلامة من الاعتراض على
أحكام الله الشرعية، وأقداره الكونية والتسليم لله في ذلك كله.

(1) القضاء والقدر للبيهقي، ص: 35.

- عدم اليأس من انتصار الحق: فالمؤمن بالقدر يعلم علم اليقين أن العقاب للمتقين وإن قدرة الله في ذلك نافذ لا محالة، فلا يدب اليأس إلى قلبه، لا يعرف إليه طريقاً مهماً انحلت ظلمة الباطل.

- علو الهمة، وعدم الرضا بالدون، وعدم الرضا بالواقع الأليم⁽¹⁾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(1) الوسطية في القرآن الكريم، ص: 339. 343.

الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسره الله لي من الحديث عن الإيمان بالقدر في هذا الكتاب، وقد سميته «الإيمان بالقدر»، فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليّ، فله الحمد والمنة، ما كان فيه من خطأ، فأستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسبي أنني كنت حريصاً ألا أقع في الخطأ، وعسى ألا أحرم من الأجر.

أدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني الإنسان أينما وجد، ويكون سبباً في زيادة إيمانه، وهدايته أو تعليمه أو تذكيره، وأن يذكرني من يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

ويقول الشاعر:

إلهي لا تعذبني فإني	مقر بالذي قد كان مني
ومالي حيلة إلا رجائي	وعفوك إن عفوت وحسن ظني
فكم من زلة لي في البرايا	وأنت عليّ ذو فضل ومنّ
إذا فكرت في ندمي عليها	عضضت أناملي وقرعت سني

يظن الناس بي خيراً وأني لشر الناس إن لم تعف عني
(سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك
وأتوب إليك))

obeyikandi.com